الفصل الخامس

كارل ماركس : عالم اجتماع أم ماركسى ؟ (١)

لا يهدف السؤال المطروح فى عنوان هذا الفصل الى استيعاب كل الجوانب التى يمكن من خلالها النظر الى أعمال ماركس ؛ كما أنه لا يعنى المصادرة على مسألة امكانية أن يكون مفكر ما ـ وماركس بصفة خاصة ـ عالم اجتماع وماركسى فى ذات الوقت • وانما هناك بعض الفوائد التى تتحقق من مجرد طرح السؤال بهذه الطريقة • اذ نجد أولا : أن اعتبار فكر ماركس أحد الانساق الفكرية المبكرة فى علم الاجتماع ، أى النظر اليه كمحاولة لصياغة مفاهيم جديدة لوصف بناء مجتمعات بأكملها ولتفسير التغيرات الاجتماعية الكبرى ، سوف يبرز أهم افكاره تمييزا بل واكثرها اثارة على الاطلاق • ولقد أصبح ذلك اكثر وضوحا مع نمو الدراسات السوسيولوجية خلال العقود القليلة الماضية وما صاحب ذلك من اعادة تقييم لتاريخ الفكر الاجتماعى الحديث • ومن الواضح أن احياء الاهتمام بالماركسية كمخطط نظرى (وهو اهتمام يقابله أفول الماركسية كعقيدة سياسية شاملة) قد ظهر من خلال الاعمال التى كتبها فى الاونة الأخيرة متخصصون فى علم الاجتماع ؛ وحتى فى وقت مبكر يرجع الى نهاية القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين ،

---

(١) أعيد نشره مع تعديلات طفيفة من مجلة «العلم والمجتمع Science and Society (شتاء ١٩٦٦) • واعتمد هذا المقال على بحث ألقى فى ٣٠ أغسطس ١٩٦٥ فى حلقة دراسية عن « اعادة تقييم كارل ماركس » A Re-evaluation of K. Marx عقدت أثناء الاجتماع السنوى الستين « لجمعية علم الاجتماع الأمريكية » American Sociological Association المنعقد فى شيكاغو • ولقد نشر هنرى مينز Henry Mins نقدا لبعض الأراء التى قدمتها هنا فى مقال بعنوان « الماركسيون واللاماركسيون » Marxists and non - Marxists نشرت فى نفس العدد من مجلة « العلم والمجتمع » • والمجتمع » •

كانت المناقشات المثمرة للفكر الماركسى تنبع ـ على ما يبدو لى ـ من اهتمامات سوسيولوجية وفلسفية تمثلت فى كتابات ماكس فيبر Max Weber وكروس Croce وسوريل Sorel وباريتو Pareto على سبيل المثال ـ ولم تنبع من الكتابات النقدية ذات الطبيعة الاقتصادية أو السياسية الخالصة(٢) ٠

ويكمن أحد الأسباب الرئيسية وراء احياء الاهتمام بالماركسية فى أن نظرية ماركس تتعارض فى كل عناصرها الهامة مع النظرية الوظيفية التى أثرت بشدة فى علم الاجتماع والانثروبولوجيا فى العشرين أو الثلاثين عاما الماضية ، والتى ظهر قصورها بشكل متزايد ٠ فعلى حين تركز الوظيفية على التناغم الاجتماعى تركز الماركسية على الصراع الاجتماعى ؛ وبينما تهتم الوظيفية بالثبات وباستمرارية الابنية الاجتماعية ، تقدم الماركسية نظرة تاريخية وتؤكد الاهتمام بالبناء المتغير للمجتمع ٠ وبينما تركز الوظيفية على تنظيم الحياة الاجتماعية من خلال القيم العامة والمعايير ، تركز الماركسية على اختلاف المصالح والقيم داخل كل مجتمع وعلى دور القسر Force فى الحفاظ على النظام الاجتماعى العام ، لفترة قد تطول أو تقصر ٠ ولقد أصبحت المقابلة بين نموذجى التوازن والصراع ـ والتى اكدها دارندورف Dahrendorf بشدة عام ١٩٥٨(٣) ـ من الامور الشائعة فى علم الاجتماع الآن ٠ فغالبا ما توضع نظريات ماركس فى مقابل نظريات دوركايم ، وباريتو ، ومالينوفسكى ، وهم يمثلون المهندسين الرئيسيين للنظرية الوظيفية ٠

ولا يعنى هذا أن الماركسية هى النظرية الوحيدة التى تعطى وزنا للصراع الاجتماعى ، وللطبيعة التاريخية المتغيرة للمجتمعات البشرية ٠

---

(٢) قمت بشرح بعض هذه الاسهامات بتفصيل أكبر فى مقال عن علم الاجتماع الماركسى نشر فى دائرة المعارف العالمية للعلوم الاجتماعية International Encyclopedia of Social Sciences (نيويورك ١٩٦٨) ، وفى كتاب موجز بعنوان Marxist Sociology (London, 1974)

(٣) R. Dahrendorf, "Out of Utopia : Toward a Reorientation of Sociological Analysis". **American Journal of Sociology, Vol. LXIV. No. 2. 1958.**

كما أنه لا يعنى أن علمـاء الاجتمـاع يقتنعون بأن مجرد بيـان وتوضيح نموذجى التوازن والصراع ـ كنماذج يمكن استخدامها فى سياقات مختلفة ـ هو الخطـوة النهـائية والكلمة الأخيـرة التى يمكن أن يقولهـا العـلم الاجتمـاعى · فقـد ساهم باحثون آخرون بعد ماركس ـ من أهمهم على الاطلاق زيمـل Simmel وماكس فيبر Max Weber بعناصر جديدة فى نظرية الصـــراع الاجتمـاع والتغير الاجتمـاعى ، وأدخلوا تعـديلات واضافات على بعض القضـايا النظرية التى طورها ماركس ، وانتقـدوا هـذه القضـايا من وجوه عديدة · ورغم ذلك ، فمن المحقق أن أعمالهم لا يمكن فهمها حق فهمها الا كأعمال تابعة أو تالية لأعمال ماركس ·

ويثير امكانيـة وجود نماذج نظرية بديلة مشـكلات صعبة يألفهـا علمـاء الاجتمـاع منـذ ظهـور علمهم كفرع مستقل من فروع العـلوم الاجتماعية · فعلماء الاجتمـاع المعاصرون يطرحون بشكل جديد سؤلا قديمـا يتعلق بالتوفيق بين « النظام » و « التقدم » وهو أحد الموضوعات الاساسية فى علم الاجتماع عنـد كونت · وتنبع هذه الصلة الفكرية (بين الأمس واليـوم) ، تنبع ـ فى جانب منهـا ـ من التشـابه فى الظروف الاجتماعيـة · فنحن نعيش ـ كما كان كونت ـ فى أعقاب ثورات كبرى ، وفى خضم طوفان ثورى وتحولات اجتماعية قائمة على العنف · وكنتيجة لذلك ، فانه يبدو أن أهم المهـام المنوطة بعـلم الاجتماع فى الوقت الحاضر هى فهم ما يحدث عنـدما تنشأ دول جديدة ، وفهم النمو السريع للعـلم والتكنولوجيا ، وانتشار اسلوب الحيـاة الصناعية فى كل أرجاء العالم ، والتغيرات الجـذرية التى حدثت فى البنـاء الطبقى ، والانساق الاسرية والسياسية · ورغم ذلك فاننـا نهتم الآن ـ على خـلاف كونت ـ بالبحث عن نظرية مقبـولة اكثر من اهتمامنا بصياغة فلسفة اجتماعية جديدة · ونحن على وعى اكثر بالحاجة الى تقـــديم تفسير للتغير الاجتمـاعى ، بينما كان كونت ـ فى خضم نظريات التقـدم العديدة فى عصره ـ اكثر اهتماما باكتشاف مبادىء النظام والاستقرار ·

لقد كان الاهتمام الرئيسى فى نظرية ماركس منصبا على الصراعات داخـل المجتمع والتغيرات البنائيـة التى تتوله عن هـــذه الصراعات ،

ويغلف هذا الاهتمام مخطط عام لنمو البشرية نموا تقدميا (نحو الأحسن)· وتتضمن النظـرية فى ذات الوقت بعض التفسيرات الجـزئية للتضـامن الاجتمـــاعى واستمرارية الابنيـة الاجتماعيـة · فقـد عالج ماركس باستفاضة ـ على سبيل المثـــال ـ الظروف التى تولد التضـامن الطبقى وتحافظ عليه · وفسر على مستوى المجتمع ككل استمرار بنـاء اجتماعى بعينه من خـلال العلاقات بين الطبقات ، والوضع الـذى تشغله الطبقـة الحاكمة ، وتأثير الافكار المسيطرة فى استمرارية نظام الحـكم · وفضلا عن ذلك فقـد تنبأ ماركس بظهور نمـط من المجتمع يختفى فيـه الصراع الطبقى كليـة ويتحقق فيـه ضرب من التناغم والتضامن التـام بعبـــارة أخرى فاننا يمكن أن نلمس فى نظرية ماركس تجـاور نموذجى التـوازن والصـراع فى تفسـير المجتمع ؛ ويمـكن أن يتم ذلـك على مستويين : الأول : أن الصراع يسـود العلاقات الاجتماعيـة داخـل المجتمع ككل ، بينما ينتشر التضامن والاتفـاق فى كثير من الجماعات الفرعية (خاصة الطبقـات الاجتماعية) فى المجتمع · والثانى : أن المجتمعات بصفة عامة يمـكن ترتيبهـا فى تسلسل تاريخى بحيث يسـود الصـراع فى مرحلة تاريخيـة معينـة ـ وهى المرحلـة الوحيـدة التى عرفناها حتى الآن ـ والتضامن والتعـاون السلمى والاتفـاق فى مرحلة أخرى ـ وهـذه تقع فى المستقبل ·

ومع ذلك فان هذه النظرية لا تقدم توفيقا كافيا بين كلا النموذجين ، هـذا طبعا بصرف النظر عن الأخطـاء التى يمكن أن تشتمل عليها فيما يتعلق بالوصف الفعلى للصراع المجتمعى والتضامن الطبقى وتفسيرهما · فهى لا تسمح ـ على سبيل المثـــال ـ بوجـود الفـكرة التى مفـادها أن الصراع ذاته قد يولد التضامن الاجتماعى أو يحافظ عليه (وهو احتمال استكشفه زيمل بطريقة اكثر منهجيـة) · وفضـلا عن ذلك فان النظرية تستبعد الصـراع كليـة من المجتمع الافتراضى اللاطبقى فى المستقبل ؛ ويبدو أنها تؤكد أيضا حالة أصلية أوليـة للمجتمع البشـرى كانت تخلو من الصـراع وذلك قبل انتشار تقسيم العمـل وتراكم الثروة الخاصة · وتعتمد هذه النظرية على تصور تاريخى يتعارض مع فكرة العلم الوضعى

وهى فكرة يبدو أنهـا تركت أثرا على أعمـال ماركس الناضجة · ونحن قد نضفى أهميـة قليلة أحيانا أو كبيرة احيانا أخرى على الجانب المتأثر بالهيجلية فى نظرية ماركس ، أو على الجانب الذى يتخـذ الخط الوضعى فيهـا ، غير أنه من المستحيل أن نوفق بينهما(*) فقـد ذهب اسحق برلن Isaiah Berlim على سبيل المثال الى القول بأن :

« لامراء فى أن الاطـار المرجعى لنظرية ماركس كان هيجليـا · لأنه يسلم بأن تاريخ البشرية هـو عملية واحدة غير متـكررة ، تسير وفق قوانين يمكن اكتشافها · وتختلف هذه القوانين عن قوانين الكيمياء والفيزياء التى تعتبـر قوانين لا تاريخية تحـاول الكشف عن ارتباطات واطرادات ثابتـة تتعلق بظواهر مترابطـة فى كل زمان أو مـكان تتكرر فيه هـذه الظواهر نفسها · أما هـذه القوانين فانها تشبه قوانين علمى الجيولوجيا والنبـات ، وهما علمان يحددان مبادئهما فى ضـوء حدوث أى من عمليات التغير المستمر »(٤) ·

ويمكن القول من الناحية الأخـرى أن كثيرا من القضايا التى قدمها ماركس لهـا على الأقل صـفة القوانين العامة · وهكـذا فان العبـارة

(*) يظهر خلاف حاد بين الماركسيين الأوربيين حول مجالات الاهتمام فى أعمال ماركس · ويظهر هـنا فريقان رئيسيان : الأول يمثله اولئك الذين يركزون على أعمال ماركس المبكرة التى تأثر فيها بهيجل ، وهم يهتمون بفكرة الاغتراب والحرية فى الفكر المـاركسى أكثر من اهتمامهم بتحليل علاقات وأشكال الانتاج · واشهر هؤلاء على الاطلاق هو هربرت ماركيوز · أما الفريق الثانى فتمثـله مدرسـة التوسير Althusser فى فرنسا حيث نستبعد أعمال ماركس المبكرة والتى تأثر فيها بهيجل لأنها لا تتضمن الماركسية كنظرية علمية بالشـكل الذى كان يرغب فيه ماركس ، ويهتم انصار هذه المدرسة فى مقـابل ذلك بتطوير الكتابات المتأخرة (والناضجة) لمـاركس ، خاصة رأس المـال وذلك بهدف تقوية المـاركسـه من الداخل وتزويدها بالمفهومات الضرورية والنظرية العلمية التى تمكنها من تفسير التحولات الاجتماعية المعاصرة · وهذا هو ما فعله التوسير وبالبيار Balibar فى كتابهما الشهير « قراءة فى راس المـال »· أنظر حول هذه الموضوعات :

— L. Althusser and E. Balibar, **Reading Capital**, London, New left Books, 1970; L. Althusser, **For Marx**, The Penguin Press, 1969.

· واتظر الترجمة العربية التى اعدها فؤاد زكريا لكتاب هربرت ماركيوز ، **العقـل والثورة هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية** ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة · ١٩٧٠ ·

المترجم

(٤) I. Berlin, **Karl Marx**, 3rd., Edn., (London, 1963), P. 124.

الشهيرة القائلة بأن « تاريخ كل المجتمعات التى عرفناها حتى الآن ما هو الا تاريخ الصراعات الطبقية » ، هذه العبارة يمكن النظر اليها ، لا باعتبارها مبدأ تاريخيا ، ولكن باعتبارها قانونا عاما للصراع من المجتمع البشرى · وبنفس الطريقة فانه يمكن النظر الى قول ماركس بأن البناء الاقتصادى للمجتمع هو الذى يحدد شكل النظم الاجتماعية والافكار السائدة ، على أنه تعبير عن قانون عام أو عن قاعدة منهجية · وحتى عندما يزعم ماركس أنه يصيغ قانونا للتغير ـ كقانون تغير المجتمع الرأسمالى مثلاً ـ فان هذا القانون لا يعدو أن يكون قانونا خاصا ينطبق فقط على نمط بعينه من أنماط المجتمعات (المجتمع الرأسمالى أو الصناعى) ، غير أنه مشتق من حيث المبدأ من قانون أعم يشير الى التغير فى كل المجتمعات · وبذلك فانه لا يجب النظر الى قوانين التغير الاجتماعى على أنها قوانين تاريخية أو مبادىء عامة ؛ أن مثل هذه القوانين يمكن أن تكون عامة ، وقابلة للتطبيق ـ فى نفس الوقت ـ على كل الحالات أنى ظهرت وحيثما ظهرت ·

ويترابط هذان التصوران معا فى نظرية ماركس ـ أعنى التفسير التاريخى لحوادث فريدة ، وصياغة قوانين عامة تفسر حوادث متكررة · والواقع أن الماركسيين قد انقسموا فيما بينهم حول تبنى أحد هذين التصورين دون الآخر : هناك ـ من ناحية ـ المدرسة الوضعية أو العلمية والتى يمثلها انجلز Engels وماكس ادلر Max Adler(*) وهناك ـ من ناحية ـ أخرى المدرسة الهيجلية التى يمثلها لوكاتش Lukacs وكروتشه Korsch وماركيوز ولفيف من معارضى الوضعية المعاصرين فى فرنسا · وفى اعتقادى أن أعمال ماركس ـ بدءا من الاعمال المبكرة وحتى الاعمال التى كتبها فى نهاية حياته ـ تبتعد كثيرا عن فلسفة التاريخ

(*) ومن انصار هذه المدرسة من العلماء المعاصرين لويس التوسير وباليبار وغيرهما على ما ذكرنا فى التعليق فى هذا الفصل ، ويتركز اهتمام هذه المدرسة على الأعمال المتاخرة الناضجة لماركس كرأس المال بينما يتركز اهتمام المدرسة الهيجلية على اعماله المبكرة التى تاثر فيها بهيجل ·

المترجم

وتقترب من صورة النظرية العلمية عن المجتمع ، وذلك بالمعنى الدقيق لمفهوم النظرية العلمية كمجموعة مترابطة من القوانين العامة والقضايا الامبيريقية التى تهتم بالتفاصيل · ولكننا على يقين ـ بطبيعة الحال ـ من أن تطور الماركسية لم يسر وفقا لهذا الطريق · فمن المحقق أن الاسهامات الرئيسية للبحث الماركسى قد اقتصرت على المجال التاريخى، بل ان هذه الاسهامات قد انحصرت فى نطاق ضيق من المشكلات ، وجاء اسهامها فى مجال البحوث الامبيريقية التى تقع فى نطاق علم الاجتماع نادرا ·

ولقد اعاد مقال حديث كتبه هوبسباوم(٥) Hobsbawm ، أعاد تأكيد النقط المتعلقة بتأثير الماركسية على التاريخ الاجتماعى والاقتصادى ذهب هوبسباوم فى تقديمه للترجمة الانجليزية لتحليل ماركس الموسع والوحيد لمجتمعات ما قبل الرأسمالية(٦) ، ذهب الى القول بأن ماركس قد حاول صياغة نظرية للتقدم التاريخى ولم يحاول صياغة مخطط للتطور الاجتماعى ؛ وانه يجب النظر الى تفرقة ماركس بين انماط مختلفة من المجتمع وفقا لهذا المنظور · وتعرض هوبسباوم لأعمال المؤرخيين الماركسيين واستخلص من هذا العرض أن الاسهامات التى ظهرت فى السنوات الأخيرة فى هذا المجال ليست كافية ولا مكتملة من حيث أنها أهملت انماطاً معينة من المجتمعات ـ وبصفة خاصة نمط المجتمع الآسيوى(*) Asiatic Society ـ كما أنها وسعت بشدة من مفهوم

---

(٥) E. J. Hobsbawm, " Introduction " to Karl Marx, **Pre-Capitalist Economic Formations** (New York, 1965).

(٦) جاء هذا التحليل لمجتمعات ما قبل الراسمالية فى المخطوط المؤرخ من ١٨٥٧ ـ ١٨٥٨ ، وهو يمثل مسودة أولية لرأس المال نشرت فى موسكو لأول مرة فيما بين عامى ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ تحت العنوان التالى
— Grundrisse Der Kritik der Politischem öKonomie (Rohetwurf).

(*) نمط الانتاج الآسيوى هو النمط الذى اعتقد ماركس انه يسيطر على شكل الانتاج فى المجتمعات الشرقية (أى الواقعة خارج نطاق أوربا خاصة مجتمعات آسيا والمجتمعات العربية) · ويقوم نمط الانتاج الآسيوى على سيطرة دولة استبدادية مركزية تتحمل أعباء الأشغال العامة ـ خاصة تنظيم الرى ـ وتتحكم فى وحدات ريفية مشاعية منعزلة تمارس الزراعة وتدفع الخراج للدولة المركزية · ولا تعرف هذه القرى شكل الملكية الخاصة ، وهى مجتمعات راكدة =

« المجتمع الاقطـاعى » لكى تسد الثغرات المختلفة · ويبـدو أن المؤرخين الماركسين يهتمون اهتماما بالغا بنفس المسائل التى اهتم بهـا ماركس ـ من ذلك مثلاً ظهـور البرجوازية داخل المجتمع الاقطـاعى ، والتحول من الاقطـاع الى الرأسمالية والمراحل الأولى للمجتمع الرأسمالى ؛ ويعنى ذلك أنه بصـرف النظر عن اهمال المؤرخين الماركسيين لانماط أخرى من البنـاء الاجتماعى ، فان اسهامهم فى دراسة التاريخ الاجتماعى الحديث يعـد أقـل أصالة مما هو متوقع · فليس الماركسيون هم الذين درسـوا عن قرب التغيرات التى طرأت على الطبقات وجماعات الصفوة فى المجتمع الحديث ، أو تطور الايديولوجيات والأحزاب السياسية أو أنهم هم الذين حاولوا تحليل الحركات الثورية·حقيقة أن دراسة هذه المجالات التى تعد أقـرب الى علم الاجتماع قـد تأثرت بأفكار ماركس أن لم تكن قـد ترتبت عليها أصلا ، غير أن أهم الدراسات حول هذه الموضوعات قد ظهرت على أيدى باحثين غير ماركسيين ـ بدءاً من زمبارت Sombart وماكسفيبر Max Weber وميشيلز Michels وحتى حايجر Geiger وكارل مانهايم Karl Mannheim ، وبدءاً مـن فبلن Veblen وحتى سى · رايت ميلز Wright Mills .

فلم يظهر على مدى تطـور البحث السـسيولوجى باحث ماركسى يضاهى فى انجاز ماكسى فيبر خاصة فى استخدامه للقضايا العامة التى قدمها ماركسى نفسه عن العـلاقة بين الايديولوجيات والبناء الاجتماعى

=

ومنعزلة ليس لها تاريخ · وينقسم المـاركسيون حـول فكرة نمط الانتـاج الآسيوى شـيعا واحزابا ، فبعضهم يراه أداة تحليلية صالحة لمجتمعات ما قبل الرأسمالية فى الشرق ، وبعضهم الآخر يتخلى عنه كلية من حيث أنه يمثل فكرة هامشية فى المـاركسية ·

انظر حول مفهوم نمط الانتاج الآسيوى :

ـ جان شـينو وآخـرون ، **حـول نمط الانتـاج الآسـيوى** ، ترجمـة جـورج طرابيشى دار الحقيقة ، بيروت ، ١٩٧٢ ·

ـ محمد محى الدين وأحمد ماجد ، « مفهوم نمط الانتاج الآسيوى : خطوط عامة » **المجلة الاجتماعية القومية** ، العدد الثانـى ـ الثلث . المجلد الخامس عشر ، ١٩٧٨ ·

المترجم

كنقطة بداية لبحث واسع وخصب عن دور مجموعة معينة من الأفكار والمعتقدات الدينية فى التغير الاجتماعى وارتباطها بالطبقات الاجتماعية المختلفة(*) فالماركسيون الذين حاولوا أن يصوروا الماركسية على أنها نسق نظرى ينتمى الى علم الاجتماع ـ من أمثال ماكس ادلر ـ قد اقتصروا على المناقشات المنهجية(٧) ، بينما حاول أنصار المدرسة الهيجلية اما أن يخوضوا غمار المجال التخيلى غير الدقيق للنقد الأدبى (لوكاتش)(**) أو أن يتحولوا الى تقديم انطباعات منهجية مثلهم فى ذلك مثل أصحاب الاتجاه الوضعى (سارتر) ٠

ولا تعكس المقابلة بين انجازات المدارس الماركسية المتزمتة وتلك الخاصة بالباحثين الذين استجابوا فقط لأفكار ماركس باجراء بحوث جديدة بأنفسهم ، لا تعكس هذه المقابلة نزعا للثقة من ماركس نفسه ٠ لقد كان ماركس مهتما ـ وبشكل حماسى ـ بالبحوث الاجتماعية الواقعية ـ بدءا من اهتمامه ببحوث كيتليه Quetdet وبيرية Buret والتقارير التى كان يكتبها مفتشو المصانع الانجليزية وحتى مشروعه

(*) المقصود هنا هو دراسة ماكس فيبر الشهيرة عن « الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية » والتى اهتم فيها بدراسة تأثير الأفكار الدينية على الاتجاهات نحو النشاط الاقتصادى بهدف فهم المظاهر الأساسية للنظام الاجتماعى ـ الاقتصادى للعالم الغربى الحديث ٠ ومن الجدير بالذكر أن الكثير من الباحثين يعتبرون أن رأى ماكس فيبر يناقض ويفند وجهة النظر الماركسية فى تفسير البناء الاجتماعى للمجتمع الرأسمالى الحديث ، وأن كان البعض يعتقد أن رأى كل من ماركس وماكس فيبر يمثل اسهاما متوازيا فى فهم هذا البناء ٠ انظر :

السيد الحسينى « اتجاهات علم الاجتماع فى فهم مشكلات الدول النامية » فى كتاب السيد الحسينى ، **دراسات فى التنمية الاجتماعية** ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، ص ص ٤٣ ـ ٥١ ٠ المترجم

(**) حول آراء نوكاتش : أنظر الفصل السابع من هذا الكتاب ٠ وانظر حول منهجه فى النقد الأدبى مقارنا بمناهج أخرى : مجموعة مقالات حول الاتجاه الاجتماعى فى النقد الأدبى بأقلام صبرى حافظ وجى بورللى وجابر عصفور ولوسيان جولدمان فى مجلة **فصول** ، المجلد الأول ، العدد الثانى يناير ١٩٨١ ٠ ص ص ٦٥ ـ ١٠١ ٠ المترجم

(٧) من الاستثناءات الشهيرة فى هذا المجال بعض أعمال الماركسيين النمساويين بما فى ذلك دراسة كارل رينر Karl Rener للقانون بعنوان « نظم القانون الخاص ووظائفها الاجتماعية »

— The Institutions of Private Law and Their Social Functions; (London, 1949).

الخاص عن « استقصاء حالة العمال »(*) enquete ouvrier بل أن ماركس قد قدم فى « **رأس المال** » دراسة امبيريقية واسعة النطاق لا تطاولها أى دراسة أخرى فى تراث العلوم الاجتماعية · وتعتبر أعمال ماركس ، تلك الاعمال التى تجمع بين صياغة النماذج النظرية عن المجتمع ، وبين تطوير مناهج للبحث مع الاستخدام الخلاق لهذه النماذج والمناهج فى تحليل نمط معين من أنماط النسق الاجتماعى والتحولات التى تطرأ عليه ، تعتبر هذه الأعمال جميعا من الاسهامات العظيمة فى تشكيل علم الاجتماع الحديث ، بل اننا عندما نتأمل ـ خارج نطاق المدارس الماركسية المتزمتة ـ كيف أدى اسهام ماركس الى تفتيح موضوعات جديدة للبحوث السوسيولوجية ، والى طرح افكار جديدة تتعلق بالنظرية والمنهج ، والى اعادة التقييم المستمر للمشكلات التى اثارتها (كما هو الحال فى المناقشة التى بين أيدينا الآن) فاننا سوف ندرك بحق أن الاسهام الذى قدمه ماركس يعتبر الانجاز الوحيد العظيم أو الخطوة الفكرية الحاسمة ـ الذى حدد موضوع علمنا فى صورة معترف بها · واذا كان ماركس قد تناقض مع نفسه احيانا ، وأخطأ فى أحيان أخرى ، وتحول بغموض من استخدام المصطلحات الهيجلية الى استخدام لغة العلوم الطبيعية والعكس ، وترك بعض مفهوماته فى صورة غير مسوغة من الناحية المنطقية ، واستخدم فى بعض الأحيان التعريفات الذاتية essentialist definitions بالرغم من أنه كان أساسا من انصار النزعة الاسمية(**)

(*) قام ماركس بتصميم هذا الاستقصاء فى شكل استبيان مكون من ١٠١ سؤال يغطى ظروف المهنة والعمل وساعات العمل والفراغ والتشغيل والأجور وتكاليف المعيشة الخاصة بالطبقة العاملة وكذلك نضالها من أجل تغيير هذه الظروف · وكان ماركس يهدف من خلال هذا الاستبيان أن يصف الشرور التى يعانى منها العمال من أجل وضع الحلول للأمراض الاجتماعية يعانون منها · ولم تنشر نتائج هذا الاستقصاء ـ الذى كانت تهتم بالاشراف على تطبيقه ونشر نتائجه « المجلة الاشتراكية » التى توقفت عن الصدور فى عام ١٨٨١ · ولقد نشر بوتومور هذا الاستقصاء فى كتاب ضمنه قراءات من كارل ماركس ظهرت لمقدمته ترجمة عربية تضمنت هذا الاستقصاء · أنظر :

بوتومور وم· ربل ، فى **سوسيولوجية ماركس وفلسفته الاجتماعية** ، ترجمة حافظ يعقوب ، سلسلة الأفكار ، دار دمشق للطباعة والنشر ، ١٩٧٢ · ص ٨٧ وما بعدها ·

المترجم

(**) التعريفات الذاتية هى التعريفات التى « يكون المحمول فيها مأخوذا فى جوهر الموضوع =

nominalist ، وبالغ فى التركيز على الصـراع فى نموذجه النظـرى ، اذا كان ماركس قد فعل هـذه الأشـياء ، فانه بالامكان أن نلتمس له العذر كمفكر رائـد كانت لافكاره من القـوة ما جعلهـا قادرة على خلق فرع جديد من فروع المعرفة ، سوف يصبح قادرا ـ خلال مسيرة تطوره ـ على تقديم وسائل تصحيح وتطوير هـذه الصياغات المبكرة (التى قدمها ماركس) ٠

أما الشىء الذى لا يمكن أن نلتمس العـذر فيـه لماركس فهـو أن ماركس قـد ضحى بالعـلم الوضعى لصالح الميتافيزيقا ، بمعنى أنه سعى فقـط للحصول على الأدلة التى تدعم صورة للعالم والتاريخ خلقها بخيال شعرى وفلسفى بحيث لا يمكن مناقشتها (تغييرها) بعد ذلك ؛ ويعنى ذلك باختصـار أن ماركس كان ماركسـيا بحق ، بمعنى أنه كان مدافعا عن عقيـدة سياسية ٠ حقيقـة أن ماركس قد ذهب الى القـول بأنه غير ماركسى(*) ، ولا يمكن أن يتطرق الينـا الشك فى أنه كان ينتقـد أثنـاء حياته التفسيرات التى يقدمها تلاميـذه لافكاره بشكل مستقل ٠ وتثار هنا مجموعة من التساؤلات : هل اعتبر ماركس هـذه التفسيرات غير كافية ، أم أنه كان يعارض تصـوير أفكاره على أنهـا عقيدة سياسية فحسب ؟ وهل نظر ماركس الى نظريته على أنهـا اكتشاف جديد ، وأنها بحاجة الى

=

مثل النطق المـاخوذ فى جوهر الانسان » ٠ ويعنى ذلك أن التعريف الذاتى هو التعريف الذى يهتم بجوهر الموضوع او ذات الشىء essence ٠ وهو يختلف عن التعريف الاسمى الذى لا يتصل بـذات الموضـوع وجـوهره وانما يتصل بمعان الألفاظ ، أمـا المـذهب الاسمى nominalism فانه « يفيد بأن المعنى الكلى قائم فى عقل العارف ولا مقابل له فى الخارج ٠ وهو يقوم مقام كثرة الأفراد باعتباره اشارة اليها » ، «فالمفاهيم والمصطلحات ما هى الأسماء تشير الى أشياء خاصة ، تكون الواقع فى حقيقة الأمر ٠ أما الأفكار العامة والمفاهيم المجردة ٠٠ فليس لها وجود متميز أو كيان مستقل » ٠

أنظر : مراد وهبه وزملاؤه ، المعجم الفلسفى ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ١٩٧١ ٠
ومحمد عاطف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القـاهرة ١٩٧٩ (مادة المذهب الأسمى)
المترجم

(*) بمعنى أنه لا يعتنق المـاركسية كايديولوجية وكعقيدة سياسية وانما يحاول فقط أن يقـدم نظرية علمية فى وصف وتفسير البناء الاجتماعى وتغيره ٠
المترجم

عمل فكرى شاق قبل أن تصبح قادرة على تحقيق أغراضها ؟ ويجب علينا ـ على أى حـال ـ أن نفرق بين ماركسيـة ماركس وماركسيـة الماركسيين (الـذين قدموا تفسيرات لنظرية ماركس) · فماركس لم ينظـر الى نسقه النظرى على أنه نسق مستقر أو بديهى ، أو أنه اطـار مبسط للتعبير عن هدف سياسى واجتماعى · لقد كان هذا النسق النظرى من ابداع ماركس نفسـه ، ولقد تطور خـلال فترة طويلة من العمل الشاق ، وكان ماركس يراجعه باستمرار فهو عمـل غير مكتمل لامراء فى ذلك · ويكشف سجل العمل الفكرى لماركس ، والذى كتبه ماكسميلين روبل(٨ Maximilien Rubel بطريقـة تثير الاعجاب ، يكشف عن المنحى الذى توصل من خلاله ماركس الى افـكاره الرئيسية ـ عن تشريح المجتمع المـدنى ، والنسق الطبقى ، والايديولوجيات ، والتغيـر الثورى ـ جنبـا الى جنب مع الخطط التى أعدها فى شبابه ليبحث هـذه الجوانب المختلفـة للمجتمع الحديث بحثا تفصيليا ، والتى لم يستطيع ابدا أن ينفذها بأكملها · ولقـد أعلن ماركس فى مناسبات عـدة أن أعماله عن النسق الاقتصـادى قـد اكتملت وأنه سيشـرع فى دراسـة مشـكلات الطبقـة ، والانظمـة السياسيـة ، والايديولوجيات ، غيـر أنه أستمر فى كتـابة مسودات جديدة لتحليـلة الاقتصـادى ، فنشر شرحا أوليـا لافكاره عام ١٨٥٩ ، ونشـر الجزء الأول من « رأس المـال » عام ١٩٦٧ ، ولم يستطع ـ خلال الاثنتى عشرة سـنة الأخيرة من حيـاته ـ أن ينهى حتى الأجزاء المتبقيـة من تحليله الاقتصـادى ، ناهيك عن انشغاله بدراسات جديدة تعالج جوانب أخرى من المجتمع ، كان ينظر اليهـا باستمرار على أنهـا ذات أهمية محورية فى تطوير نسـقه النظرى · وهنـاك تفسيرات عديدة للعقم النسبى لسنوات ماركس الأخيرة ، منها ضيقه بعـدم اهتمام الباحثين بأعمـاله ، وخيبة أمله فى حركة العمال بعد انهيـار الدولية(*) ، وفشله فى حـل مشكلات

---

(٨) Maximilien Rubel, **Karl Marx : Essai de biographie Intellectuelle** (Paris, Revised edn., 1971).

(*) المقصـود هنـا الاشتراكية الدوليـة الأولى او رابطة العمـال الدوليـة الأولى The First International Workingmen Association التى اسسها ماركس فى لنـدن عام ١٨٦٤ فى محاولة التنسيق بين جهـود العمـال لتحقيق الاشتراكية فى =

اساسية فى التحليل الاقتصادى للرأسمالية ، والمرض وعدم الاستقرار الاسرى ـ وبذلك فاننا لا يمكن أن نفسر هذا العقم بأنه ناتج عن قناعته الذاتية باكتمال نظريته ، وانها لم تكن لتحتاج ـ بعد أن أكملها ـ الا لأن تشرح وتفسر فقط · لقد كان ماركس على وعى بعدم اكتمال أعماله ، وكان يراجع بين الحين والآخر بعض مفاهيمه الاساسية ، من ذلك على سبيل المثال تصنيفه لمجتمعات ما قبل الرأسمالية ، وخاصة طبيعة النمط الآسيوى للمجتمع ·

واذا أخذنا الماركسية باعتبارها نظرية كاملة ونهائية عن المجتمع ، فان ماركس لا يعتبر ماركسيا · واذا ما اخذناها بمعنى آخر ما يزال على قدر من الأهمية بالنسبة للتاريخ السياسى للقرن العشرين ، وهو أن ماركس لم يعتبر نفسه مبدعا لعقيدة سياسية يجب أن تتبناها حركة الطبقة العاملة كايديولوجيا سياسية وحيدة ، اذا أخذنا الماركسية بهذا المعنى فان ماركس لا يعتبر ماركسيا أيضا · فقد تبنى ماركس فيما يتعلق بهذا النقطة وجهة نظر متسقة منذ كتاباته الأولى وحتى كتاباته الأخيرة · ففى خطاب موجه الى Ruge فى سبتمبر عام ١٨٤٣ كتب يقول :

« لست أشجع على الاطلاق رفع راية الدوجماطيقية ··· على العكس من ذلك تماما ··· نحن لانواجه العالم بطريقة يبدو فيها التعصب المذهبى لمبدأ جديد قائلين له : ها هى الحقيقة ، وعليك الانحناء أمامها ! اننا نحاول تطوير مبادىء جديدة للعالم تختلف عن المبادىء الموجودة بالفعل ونستطيع أن نلخص وجهة نظر مجلتنا(٩) فى عبارة واحدة : أن يكتسب

=

بلدان متعددة · ولقد تحطمت أنشطة هذه الرابطة ـ على صخرة الخلافات بين الماركسيين والفوضيين ، والتى انتهت الى خلاف حاد بين ماركس والزعيم الفوضوى ميخائيل باخونين Mikail Bakunin فى عام ١٨٧٢ · ولقد نقل مقر الدولية الاشتراكية الأولى الى نيويورك لتفادى هذه العقبات ولكنها حلت عام ١٨٧٦ ·

(٩) المقصود هنا المجلة المقترح انشاؤها آنئذ بعنوان Deutsch - Frazösishe Jahrbücher والتى صدر منها عدد واحد مضاعف الحجم فى عام ١٨٤٤ · المترجم

العصر معرفة ذاتية (فلسفة نقـدية) تتصل بنضالاته وأهدافه · هذه هى مهمة العالم ومهمتنا معه» ·

وصدر ماركس فى عام ١٨٨٠ «استقصاءه عن حالة العمال» بدعوة للعمـال الفرنسيين بأن يجيبوا على أسئلة الاستبيـان ، طالمـا أنهم فقط القادرون على أن يشخصوا «وبمعرفة كاملة ، الشرور التى يعانون منها» وهم «فقط ، وليس أولو المعرفة الملهمون ، القادرين على أن يضعوا موضع التنفيذ علاجا للامراض التى يعانون منها » ·

ولسنا ندعى هنا أن ماركس لم ينحرف مطلقا عن هذه الوجهة من النظر ، أو أنه لم يحاول مطلقا فرض مفهومه عن أهداف الطبقة العاملة والاساليب التكتيكية الملائمة لها · ولكن نشر وثائق الدولية الاولى(١٠) مؤخرا قد أوضح بجلاء كيف كان ماركس أقل تسلطية فى نشاطه السياسى، الأمر الذى تأكد من خلاله اتجاهه نحو «كمبون باريس» وفشلها ، حقيقة أن مـاركس قـد أعطى فى بعض الأحيـان انطباعـا بالتزمت فى علاقته بالاشتراكيين ذوى الاتجاهات الأخرى ، غير أن ذلك قد يكون مرجعه الى الاثارة التى تظهر لدى مفكر عظيم وخلاق فى مواقفه مع أفراد ليسوا فقط أقل قدرة ، ولكن ينقصهم أيضا الاخلاص للبحث العلمى الذى تميز بـــه ماركس · فقد كان برودون Proudhn ـ على سبيل المثال ـ مفكرا خياليا صرفا ، وكان باخونين Bakunin ثوريا انفعاليا ذا أفـق ضيق · ولذلك فلم يستوعب أى منهما فكرة البحث العلمى الاجتماعى الدقيق ، بل أن أيا منهما لم يجر مثل هذا البحث ، ومن ثم فقد تعامل معهما ماركس بازدراء ربما قد لايكون مقبولا لنا الآن ، غير أن له ما يبرره على أى حال ·

لقد أبدى ماركس التزاما عميقا لم يتخل عنه فى كل أعمـاله (حتى فى كتاباته المبـكرة التى كان يحـاول فيهـا التخلص من براثن الفلسفة الهيجلية) بالبحث العلمى **للحقائق الاجتماعية** ، وظهر هذا الالتزام بجلاء

---

(١٠) **Documents of the first International**, Vol. 1, 1864 - 66. Vol. 2. 1866 - 68.

فى تصدير ماركس « **لاستقصائه لحالة العمال** » حينما ذهب الى القول بأن على هؤلاء الذين «يرغبون فى الاصلاح الاجتماعى ، أن يسعوا أيضا الى اكتساب المعرفة **الوضعية الدقيقة** المتصلة بالظروف التى تعمل وتعيش فيها الطبقة العاملة التى لها وحدها المستقبل» · ولقد فهم البعض الماركسية ـ متمثلة فى أعمال ماركس نفسه وفى أعمال اتباعه ـ على أنها محاولة لاخضاع الأفكار النظرية والبحوث الاجتماعية الى مثل أعلى اجتماعى مع تحديد أساليب هذا المثل الأعلى · ولقد أكدنا من قبل أن هذا الرأى ليس صحيحا فيما يختص بماركس نفسه ، ذلك لأن هدفه المعلن كان يتمثل فى أن يوضح لعصره **أهدافه** التى يجب أن يسعى الى تحقيقها ، وأن يحدد للطبقة العاملة ـ بصفة خاصة ـ موقفها الحقيقى فى المجتمع الرأسمالى ، وما تشتمل عليه ثورة هذه الطبقة فى مقابل هذا الموقف ، وما يمكن أن يترتب على حركة الطبقة العاملة من نتائج ·

ومع ذلك فقد يكون من المفيد أن نفحص العلاقات بين الأحكام النظرية وأحكام الواقع وأحكام القيمة فى أعمال ماركس · والنقطة الأولى التى يجب ملاحظتها هنا هى أن الاشتراكية والعلم الاجتماعى كانا متداخلين فى حياة ماركس · فقد اصبح فى سن مبكرة ـ ربما بتأثير من مذهب سان سيمون ـ متعاطفا مع حركة الطبقة العاملة ، ولا شك أن هذا الالتزام بالاشتراكية عند ماركس قد سبق الصياغة الكاملة لنظرياته السوسيولوجية · رغم ذلك ، فانه كان مأخوذا « بعلم المجتمع الجديد » الذى بشرت به كتابات سان سيمون (وكذلك كتابات لورنز فون شتاين Lorenz Von Stein عن الحركة الاجتماعية فى فرنسا) ؛ وكانت قراءاته المؤخرة لمؤرخى الثورة الفرنسية وعلماء الاقتصاد السياسى كافية الى درجة دفعته الى الاعتقاد بأن هناك ميدانا جديدا ومنهجا جديدا لدراسة حياة الانسان الاجتماعية فى طريقهما الى الظهور ؛ وأن تطور الرأسمالية وظهور الحركة العمالية يكونان الموضوع الأساسى لهذه الدراسة ؛ ومنذ ذلك الحين ـ حوالى منتصف الأربعينات من القرن تاسع عشر ـ سارت مشاركة ماركس فى الحركة الاشتراكية جنبا الى جنب مع جهوده لتطوير العلم النظرى للمجتمع ، ودعمت هذه المشاركة وتلك

الجهود كل منهما الآخرى · ولا يجب أن يثير ذلك أى قدر من الدهشة أو يبدو على أنه شىء غير عادى · فأعظم علماء العلوم الاجتماعية اهتموا اهتماما مبالغا فيه ببعض المشكلات الاجتماعية · وكانوا فى بعض الأحيان متحيزين متعصبين (وأنا افكر فى هذا السياق فى ماكس فيبر ، ودوركايم وباريتو) وربما يكون هذا هو السبب الرئيسى فى أهمية الأعمـــال التى قدموها والجدل الفكرى الذى أثارته · والسؤال الذى يثار بشأن هؤلاء يتعلق بما اذا كان هذا التحيز قد ظهر فى أعمالهم بوضوح ليس فقط فى مجرد اختيار موضوعات البحث ، ولكن فى المفاهيم والنماذج النظريـة التى قدموها ، والتى تحولت الى نماذج مثالية مسرفة فى مثاليتها ، وفى تنفيذ وعرض بحوثهم ، التى أصبحت تنتقى بعناية ، ويتم صياغتها بحيث تخفى احتمال ظهور الأمثلة التى تتنافى معها ·

وتوجد عند ماركس بصفة خاصة (وعنـد آخرين أيضـا أشهرهم دوركايم) توجد مشكلة أخرى جوهرية · هل تحتوى النظرية ، أو الأطار الفكرى العام ، على نظرية فى المعرفة تفرق بين الحقيقة والقيمة ؟ فى هذه الحالة يجب أن نأخذ بعين الاعتبار خصائص عديدة فى فكر مـاركس · فهناك فكرة الحتمية الاجتماعية للفكر ، والتى تبدو على أنها تحطم استقلال الاحكام القيمية ، ولكنهـا تحطـم فى ذات الوقت استقلال كل الاحـكام (بما فى ذلك الأحكام التى تكون نظرية ماركس نفسه ، الأمر الذى لايجعلنا بحاجة الى التساؤل عما اذا كانت هذه النظرية صادقة أم زائفة) · ولكن هذه المشكلة ليست قاصرة على نظرية ماركس فحسب : انها مشكلةكامنة فى أى نظرية حتمية ، بل فى أى نظرية علمية فى مجال علم النفس أو علم الاجتماع · والحقيقة أنه يمكن القول فى مقابل ذلك أن احدى مزايا النظرية الاجتماعية التى قدمها ماركس تنحصر فى أنها سمحت بمجال أرحب لدور العمل الخلاق للعقل البشرى فى صياغته للنظم الاجتماعية(١١) ·

---

(١١) عرض ماركيوز فى كتابه « العقل والثورة » Reason and Revolution (New York, 1941). الفلسفة النقـدية لمـاركس فى مقابل الوضعية السيولوجية لأوجست كونت فى ضوء هـذا المعنى · واتبع مؤخـراً نفس الأسـلوب فى كتـابه « مشـكلة المنهـج » Question de Methode (Paris, 1960) .

وهناك مشكلة أخرى أكثر تحديدا ظهرت فى نظرية ماركس عن الأيديولوجيات ، فهى نظرية أخرجت العلم من نطاق الأفكار المحددة اجتماعيا ، ولكنها أضفت على الأفكار الأخلاقية طابعا أيديولوجيا خالصا من حيث أنها تعكس مصالح الطبقات الاجتماعية ، وفى ضوء هذه الرؤية تصبح الأفكار الأخلاقية نسبية ، ومع هذا فان ماركس قد عبر عما يبدو وكأنه أحكام أخلاقية مطلقة • واذا كان هذا صحيحا بحق ، فانه يعنى أن هناك تناقضا فى فكر ماركس •ولقد تم التعبير عن خلاف حول هذه المسألة بشكل مختلف الى حد ما كنتيجة للاهتمام بكتابات ماركس المبكرة • والسؤال الذى تم طرحه هنا هو : هل توجد عند ماركس صورة ثابتة لجوهر (لذات) الانسان ، بحيث يغترب فى أنماط معينة من المجتمع، وينجح فى بعضها الآخر فى أن تجد تعبيرا كاملا عن الذات ومن ثم يمكن النظر اليها على أنها نموذج أخلاقى مثالى لأحد صور أخلاقيات تحقيق الذات ؟ أم أن جوهر الانسان ما هو الا ظاهرة تاريخية خالصة ، ومن ثم فلا يمكن مطلقا صياغة نموذج مثالى عام أو معيار عام عن الأخلاق المرتبطة بهذا الجوهر ؟ لن نحاول هنا أن نقدم حلا لهذه المشكلة• فلم يحاول ماركس نفسه أن يحلها ، بل أن فكره حول هذا الموضوع يشوبه بعض الغموض ، كما أن الاسهامات التى قدمها بعض الماركسيين ـ كدراسة كاوتسكى Kautsky عن « الاخلاق والمفهوم المادى للتاريخ » لاترقى الى مستوى المناقشة الفلسفية الأصيلة • وحسبنا هنا القول بأن أى تفسير لمفاهيم ماركس الاخلاقية على أنها مفاهيم عقلية rationalist وتاريخية historical يعتبر تفسيرا ممكنا ومقبولا • ذلك أن هذه المفاهيم مع اعترافها بوجود بعض الحاجات الانسانية الأساسية والدائمة التى يجب اشباعها ، ويمكن التعبير عنها فى شكل مثل أعلى أخلاقى ، قد نظرت الى هذه الحاجات على أنها تتخذ أشكالا مختلفة فى أطوار تاريخية مختلفة للمجتمع •

وربما تمكننا وجهة النظر هذه من حل مشكلة أخرى فى نظرية الايديولوجيا عند ماركس فبالرغم من أن هذه النظرية تبدو نسبية الى حد كبير ، الا أنها تكشف ـ فى ارتباطها بعناصر أخرى من نظرية ماركس ـ عن دوجماطيقية (تزمت) لاحدود لها ، وتفسير ذلك على الشكل التالى :

أكدت هذه النظرية على أن كل الأفكار الأخلاقية هى أفكار طبقية ومن ثم فهى نسبية ، غير أنها أكدت على أن الطبقة العاملة هى الطبقة الصاعدة فى المجتمع الحديث (كما تكشف عن ذلك الأجزاء السوسيولوجية من النظرية) وبناء على ذلك فان الأفكار الأخلاقية لهذه الطبقة تسمو على أفكار الطبقات الأخرى ، ومن ثم يجب أن يكتب لها وحدها الانتشار · والنقد الذى يوجه للأهداف السياسية والاجتماعية للطبقة العاملة وحتى الى الوسائل التى تستخدمها هذه الطبقة لتحقيق أهدافها ، هذا النقد لايظهر الا من أوضاع طبقية أخرى ويجب أن يدان على أنه أقل أهمية · وبهذه الطريقة ليس بالامكان فقط تبنى موقف أخلاقى مطلق ، على أساس النظرة الأخلاقية النسبية ، ولكن بالامكان أيضا أن تستخدم نظرية الايديولوجيا لرفض أى أراء يتبناها المعارضون سواء أكانت آراء أخلاقية أم نظرية ·

ومن النادر حقا أن يستخدم الماركسيون بالفعل النظرية بهذه الطريقة المقززة · وقد يكون أكثر أهمية من ذلك أن نؤكد أن ماركس نفسه لم يقدم رأيه بهذه الطريقة · فنجد أولا فى تفكير ماركس النقطة التى سبق الاشارة اليها والتى تتصل بالجوهر الانسانى الثابت أو الاخلاق الانسانية الثابتة · ونجد ثانيا أن الفهم الواعى لافكار ماركس يكشف عن أنه لم يرفض على الاطلاق أية رؤية نظرية جادة لمجرد أنها تعبر عن أيديولوجية غير بروليتارية · فمنذ نقده لبايور Bauer فى كتابه « المسألة اليهودية» ومرورا بكتابه « فقر الفلسفة » وحتى معالجته النقدية للاقتصاد السايسى الحديث فى « رأس المال » و « نظريات فائض القيمة » أخذ ماركس على عاتقه من حيث المبدأ ـ أن يوضح من خلال الحجج النظرية والبحوث الامبيريقية ، أن وجهات النظر التى يرفضها زائفة ،ولم يحاول الاشارة الى الأسس الايديولوجية التى تقوم عليها وجهات النظر هذه الا فى النهاية ، هذا اذا كان قد أشار اليها على الاطلاق · وهناك مثال جيد على هذا المنحنى جاء فى أحد الأجزاء المهملة من كتاب « الايديولوجية الألمانية » حيث نقد ماركس المذهب النفعى على أساس أن ارجاعه لكل العلاقات البشرية الي علاقة واحدة هى الفائدة قد انتهى الى فهم زائف لكل من

الطبيعة البشرية والحياة الاجتماعية · وفى ضوء هذه المعالجة النظرية فقط يقدم ماركس تفسيرا سسيولوجيا لهذا المذهب كايديولوجية تعكس بوضوح نفس العلاقات الاجتماعية التى تنتجها الرأسمالية الحديثة ، ويبدو لنا أن كلا من التحليل السسيولوجى والتحليل النظرى ـ فى هذا المثال ـ مثمر بشكل غير عادى،وأنه بالامكان التقدم بالتحليل السسيولوجى خطوات أخرى ، كما فعل زيمل فى كتابه « فلسفة النقود » الذى تأثر فيه تأثرا شديدا بماركس ·

ومع ذلك ، فلسنا نرغب هنا فى الاشارة فقط الى الاستقامة العلمية لماركس على أنها كانت الضابط الوحيد على مظاهر حماسه الايديولوجى، حتى ولو كانت هذه الاستقامة العلمية تتناقض بشدة مع المنحى الذى نحاه بعض أتباعه · ذلك أن التحليل النظرى والولاء للحركة العمالية قد ارتبطا بشدة فى حياة ماركس وكان كل منهما يدعم الآخر · لقد تطورت الحركة العمالية بطريق تلقائى ، ويمكن لماركس أن يبرر بسهولة ادعاءه بأنه يحلل ويفسر عملية واقعية من عمليات التغير الاجتماعى · لقد كانت الهوة بين الطبقات تتسع ، وكان الوعى الطبقى ينمو بشدة ، وكونت العلاقة بين الطبقات جوهر المشكلة الاجتماعية ، والقت المذاهب الجديدة ، لتنظيمات الطبقة العاملة ، الضوء على المجتمع اللاطبقى الذى تنبأ به ماركس · وهكذا وجدت نظرية ماركس تدعيما امبيريقيا ، ولقد حقق اختبارها الامبيريقى فى ذات الوقت درجة من التدعيم العقلى والواقعى للاراء الاخلاقية لماركس · ويتضح الارتباط بين هذين الجانبين ايما اتضاح فى مشروع « استقصاء حالة العمال » الذى شرع فيه ماركس عام ١٨٨٠ ، والذى كان أولا وقبل كل شىء واحدا من سلسلة من المسوح الامبيريقية لأوضاع الطبقة العاملة ؛ ولكنه ـ ثانيا ـ حقق هدفا أبعد من ذلك حيث كان بمثابة محاولة لدراسة الطبقة العاملة عن طريق الطبقة العاملة ذاتها ، ولكى يجمع فى جهد بحثى واحد ، كلا من البحث الواقعى وزيادة الوعى الطبقى ·

وهنا يتبدى الاتفاق بين الهدفين الرئيسيين لاعمال ماركس · واذا ما تساءلنا عما اذا كان هذا التوفيق بين الهدفين شرعيا أم لا ،

فان الاجابة تكون بالاثبات القاطع · فاذا كان للعلم الاجتماعى أى جوانب تطبيقية فى الحياة الاجتماعية الفعلية ، فان أحد جوانبه التطبيقية الهامة يجب أن تؤكد على ضرورة نشر المعرفة بطبيعة العلاقات الاجتماعية فى مجتمع معين بغرض زيادة قدرة الأفراد على التنظيم الذاتى الواعى لحياتهم الاجتماعية · وفى المجتمعات التى تستبعد فيها طبقات برمتها من أن تلعب دورا ذا أهمية فى تنظيم الشئون العامة ، فانه من الصواب التركيز على ايقاظ وتنمية نوع من أنواع الوعى لدى هذه الطبقات بمكانها فى المجتمع ، وبالفقر المادى والفكرى الذى تعيش فيه ، وهدر حقوقها ، واستبعادها من بناء القوة القائم · ومع زيادة المعرفة بالمجتمع ، وزيادة التغيرات الطبقية ، يجب على الفكر السسيولوجى أن يتابع هذه الحركات ، ويراجع افتراضاتها المبدئية ، ويتفهم مواقع جديدة للبحوث الامبيريقية · وهنا يظهر الاختلاف بين ماركس واتباعه من الماركسيين · واذا ما أخذنا مثالا واحدا ، فاننا لا نعتقد أن الماركسية المتزمته قد قدمت اسهاما واحدا فى دراسة الطبقات الاجتماعية الحديثة · ومع ذلك فقد كان تأثير ماركس قويا الى أبعد الحدود ، وهناك دراستان توضحان كيف يمكن أن يكون هذا التأثير مثمرا ، طالما كان الباحث ماركسيا غير متعصب · احدى هاتين الدراستين نظرية وهى دراسة اوسوفيسكى Ossowski بعنوان « الوعى الاجتماعى بالبناء الطبقى » ، والأخرى تاريخية وهى دراسة تومسون Thompson عن « تشكل الطبقة العاملة الانجليزية » ·

وبعد فقد انصب الاهتمام فى هذا الفصل على اعادة تقييم النظرية السوسيولوجية التى قدمها كارل ماركس فى علاقتها بماركسيته · ولم نحاول أن نذكر شيئا ــ الا بشكل ضمنى ــ عن صدق أو فائدة نظرياته فى الوقت الحاضر · والسؤال الذى يطرح نفسه فى النهاية هو : هل ينتمى فكر ماركس ببساطة الى تاريخ علم الاجتماع ، أم أن جزءا منه يبقى حتى اليوم بمثابة عنصر هام فى الهيكل العام للنظرية السسيولوجية ؟ فى اعتقادنا أن الجانب الأخير من السؤال هو الصادق ــ ويعنى ذلك أن « نموذج الصراع » الذى قدمه ماركس ، وخاصة نظريته عن الطبقات ،

وتفسيره للايديولوجيات ، ونظريته عن الثورة يجب أن يجد مكانا فى النظرية السوسيولوجية ـ وان كان ذلك لا يمنع أن ننظر الى شقى السؤال بنفس القدر من الأهمية · فعلم الاجتماع لا يشبه أى علم طبيعى ، حيث تتطور النظرية بطريقة خطية ، وحيث يكون تاريخ موضوع العلم هو تاريخ العلم ذاته ، الأمر الذى يجعل التاريخ غير ضرورى فى فهم المبادىء النظرية ؛ ان علم الاجتماع يشبه الفلسفة الى حد كبير ، حيث تتم دراسة المشكلات الاساسية من وجهات نظر مختلفة ، وحيث يشكل الالمام بهذه الاتجاهات المختلفة وظهورها المتتابع المحتوى النظرى لموضوع العلم · وبهذا المعنى فلسنا نعتقد أننا سوف ننتهى أبدا من اعادة تقييم كارل ماركس ·